

تأثير الزراعة في الحياة الحضارية لمكسيك ما قبل كولومبس

الأستاذ/ رضا بن علال

المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة

لقد كان لظهور الزراعة في مكسيك ما قبل كولومبس في الفترة التي تمتد ما بين 6500 ق.م و 1500 ق.م تأثيره على مختلف الجوانب الحضارية كالديانة و الفن و الاقتصاد و الاجتماع، على أن كل هذه النشاطات كانت تدور حول فلك التقليد الزراعي الذي غير من النمط المعيشي للجماعات البشرية القاطنة بالمنطقة الممتدة بين ريو غراندي و خليج كاليفورنيا شمالا، و مرتفعات التشياباص و شبه جزيرة يوكتان جنوباً⁽¹⁾.

استقرار الإنسان في ما بين الأمريكيتين

لقد ساهمت زراعة النباتات المغذية في مكسيك ما قبل كولومبس في ارتباط الإنسان بالأرض، و هو الأمر الذي شجعه على الاستقرار و مباشرة فلاحية الأرض بعد تمكنه من تأمين غذائه من غير اللجوء إلى التنقل الموسمي الذي كان يمارسه عندما كان يعتمد على حياة الصيد و القطف. يبدو أن ظهور الزراعة في مكسيك ما قبل كولومبس كان له أثره البالغ في استقرار شعب غامض في حوالي منتصف الألف الثانية قبل الميلاد يدعى الأولمك (OLMEC)⁽²⁾ في شمال برزخ تهوانتيك، في أرض مطلة على خليج المكسيك (الخريطة)، وقد فرض هذا الشعب نفسه على هؤلاء الفلاحين الذين استقروا في المنطقة الممتدة ما بين وسط و جنوب ما يعرف اليوم بالمكسيك خلال الألف الثانية قبل الميلاد. هذا و قد أسس الأولمك عدة مدن، من بينها ما يعرف في وقتنا الحاضر بأسماء سان لورانزو و لفينتا و ترس زوتوس.

¹ - أرنولد تويني، تاريخ البشرية، ترجمة نقولا زيادة، بيروت: الأهلية للنشر و التوزيع، 1988، ج.1، ص73.

² - عرف شعب الأولمك بهذا الاسم الذي يعني في لغة الآزتك " شعب بلاد المطاط "، و ذلك نتيجة لاستقرار هذا الشعب في منطقة تكثر بها أشجار المطاط. و يبقى الغموض يكتنف أصول هذا الشعب

و موطنه الأصلي، بالرغم من أن البعض يعتبره من المايا؛ : COE (M.), *Les premiers*

Mexicans, Paris Armand Colin, 1985, pp81-82

و وصل التأثير الثقافي لهذا الشعب إلى وادي مكسيكو، حيث أظهرت الحفريات وجود تأثيرات فنية أولمكية كالمنحوتات التي تصور الأطفال برؤوس لها ملامح النمر ذوي الأنياب البارزة⁽³⁾. وقد أدخل الأولمك على ما يبدو عبادة النمر الاستوائي المنقط إلى مكسيك ما قبل كولومبس، و هي ذات الملامح التي احتفظ بها إله المطر المعروف باسم تلالوك (Tlaloc) (الشكل 3)

و قد أحكم شعب الأولمك قبضته على المجتمعات القروية التي جاوروها عن طريق ممارستهم لطقوس سحرية، حتى عرفوا باسم الشامان أو الكهنة⁽⁴⁾.

و بعد استقرار الأولمك على خليج المكسيك بنحو 2500 سنة، نزحت قبائل كانت تنتشر في شمال شرق المكسيك الحالي نحو المناطق الزراعية الداخلية. و من بين أبرز تلك الشعوب التي استقرت في وسط المكسيك مع بداية الألف الثانية للميلاد التشتشمك (Chichimèques)⁽⁵⁾. فقد توغل هذا الشعب حتى وصل مشارف تولا (Tula) عاصمة التولتك، إذ مثل هؤلاء الأخيرين الحد الفاصل بين المناطق التي كان الإنسان يمارس فيها الزراعة في الشمال الغربي و الهضبة الوسطى وبين المناطق الجافة في شمال شرق المكسيك (الخريطة). فلقد عمل التشتشمك جنودا مرتزقة لدى التولتك في أول الأمر، ثم سرعان ما انقلبوا عليهم و قاموا بإحراق و تدمير العاصمة تولا في حوالي سنة 1168م، بعدها استقروا في وادي مكسيكو.

و الظاهر أن التشتشمك اندمجوا في المجتمعات المزارعة و تأثروا بها، فأسسوا عدة مدن من بينها تشكوكو التي أضحت مركزا حضاريا هاما في وادي مكسيكو و تلاش كالا التي أسست في وادي بويلا في سنة 1348م. و توحدت جهود بعض الفلاحين مع إحدى

³- أرنولد تويني، المرجع السابق، صص 155-157

⁴- PETERSON (F.-A.), Le Mexique précolombien, Paris :Petite Bibliothèque Payot, 1976, pp38-39.

⁵- كلمة التشتشمك تعني المنحدرين من الكلب، وهو شعب بدوي انتشر في شمال شرق المكسيك، لبسوا جلود الأيل و استعملوا القوس و النبال
WOLF (Eric R),Peuples et Civilisations de l'Amérique central des origines à nos jours, Paris : Payot,1962 pp112-117.

قبائل التشتشمك بالقرب من بحيرة باتسكوارو فأسسوا سلالة حاكمة بسطت سيطرتها ما بين واد البازا و واد ليرما سانتياغو⁽⁶⁾.

تأثير الزراعة في المعتقد الديني

لا نكاد نعرف الشيء الكثير عن الاعتقاد الديني قبل استقرار الإنسان في مكسيك ما قبل كولومبس و ممارسته للزراعة، غير أنه بدأ في دفن موتاه رفقة الفخاريات و التماثيل المصنوعة من الطين المشوي في حوالي تاريخ 1500 ق.م، و هو ما يوحي إلى بداية الاعتقاد في حياة أخرى⁽⁷⁾. و قد ارتبطت التقاليد الزراعية بمعتقدات و طقوس قبائل مكسيك ما قبل كولومبس، و أصبحت لآلهة معظم هذه القبائل أصول مرتبطة بإحدى العناصر الرئيسية التي لا غنى للنشاط الزراعي عنها، بل أضحت أصول بعض الآلهة من النبات نفسه.

و قد انقسمت الآلهة عند شعوب مكسيك ما قبل كولومبس إلى مجموعتين، تتألف الأولى من آلهة تعبد في مناسبات معينة و من طرف مجموعات خاصة. إذ أصبح لكل مجموعة مختصة بحرفة أو عمل إلهها خاص، فنجد عندهم إله التجار و إله الموسيقيين و إله الأطباء. أما المجموعة الثانية فتتألف من آلهة الزراعة و الخصب، و منها إله المطر و إله الشمس و آلهة الأرض و آلهة الذرة، و تعدّ آلهة هذه المجموعة ذات أهمية قصوى، بحيث يصلى لها في كل الأوقات و في المناسبات و من غير المناسبات⁽⁸⁾، نذكر من بينها:

■ إله الغرس والربيع المعروف باسم شيبى توتك (XIPÉ TOTEC) (الشكل 1)، إذ اقترن

اسم هذا المعبود بالحصاد و الربيع و تحديد الغطاء النباتي، وكان إله لمشروب البولكي (PULQUE) وكان الإله يمثل بجلد بشرية مسلوخة من إحدى الضحايا الآدمية، تنتهي تنويرته و تسريحة شعره إلى شكل ذنب طائر العقعق، و كانت ملامحه تلون باللونين الأحمر والأبيض. وكان يضحي في سبيل الإله بأضاحي آدمية في احتفال يعرف لدى الأوفياء والمتعبدين بعيد سلخ الرجال (TLACAXIPEHUALIZTLI). و كان كهنة المعبود يستخرجون قلب الضحية النابض بواسطة خنجر مصنوع من السيج البركاني، و بعد

⁶- WOLF (Eric R), Op .cit, pp112-117.

⁷- PETERSON (F.-A.),), Op .cit, p 148

⁸- Ibid, p 150

سلخ الجثة و ارتداء كاهن شبيبي توتك الأكبر لجلد الضحية، كان يرقص تعبيرا على تجدد الغطاء النباتي، وكان يحتفل بإله الربيع في المنطقة الممتدة ما بين المكسيك و نيكاراغوا⁽⁹⁾.

■ كتزال كواتل(QUETZALCOATL)أو ما يعرف باسم "الثعبان النفيس" أو الثعبان ذو الريش هو إله الحياة و الخصب و خالق الزراعة(الشكل 2)، كما ينعت بأنه واضع التقويم و الطقوس الدينية و معلم لكثير من الفنون و الحرف. تحول الإله كتزال كواتل حسب الميثولوجيا الآزتكية إلى نملة، و قام بسرقة بذور الذرة الصفراء من آلهة الأرض و قدمها عربون محبة للإنسان فأصبح هذا الأخير مدينا له. و تنتشر عبادة بين كل شعوب مكسيك ما قبل كولومبس، و يمثل ذو ملامح بيضاء بحمل لحية. و قد اعتبر سكان المكسيك في مطلع القرن السادس عشر كورتيز على أنه كتزال كواتل الذي تنبأ السحرة و الشامان على أنه سيعود إلى شعبه من حيث مشرق الشمس⁽¹⁰⁾.

■ انتشرت عبادة إله المطر والرعد المعروف باسم تلالوك(TLALOC) (الشكل 3) في معظم أرجاء المكسيك و يعرف عند شعب المايا باسم تشاك (CHAC).

■ إله الغطاء النباتي والذرة الناضجة، تشكومكوواتل(CHICOMEKOAL)(الشكل 4)

■ يوم كاآش (YUM KAAX)، و هو إله الذرة و الحصاد عند المايا.

■ إله الشمس هوتسلوبشتلي(HUITZILOPCHTLI) (الشكل 5) ، معبود الأزتك، هو ابن إحدى آلهة الأرض تدعى كواتلكو(COATLICUE)⁽¹¹⁾.

كان الإنسان يتقرب بالأضاحي البشرية في مكسيك ما قبل كولومبس لإرضاء آلهة الزراعة و الخصب. فكان يلقي عند المايا برجل، حينما يصيب البلاد جفاف، في بئر عميقة ليكون واسطة بينهم و بين إله المطر تشاك ، فان لم يمت، أخرجوه من تلك البئر و تفاءلوا بعامهم خيرا، يقدس الرجل على أساس أنه رسول. أما عند الأزتك، فبالإضافة إلى احتفال سلخ الرجال المذكور أعلاه، فقد قدم هؤلاء أضاحي بشرية كثيرة⁽¹²⁾، أرادوا

⁹ - PETERSON (F.-A.),), Op .cit, pp 151-152

¹⁰ - DUVERGER (Ch), « Les Aztèques et leur étrange panthéon » L'HISTOIRE ,290 , septembre 2004 pp 48-49

¹¹ - PETERSON (F.-A.),), Op .cit, p 151

¹² - DUVERGER(Ch),« Enquête sur un tabou »,L'HISTOIRE,290,septembre 2004 pp 48-49

من خلالها جلب رضى الآلهة، كتلك التي كانت تقام في احتفال أوشبنسيتلي(OCHPANIZTLI)الذي كان يضحي فيه بفتاة بكر تتنكر في زي تشكومكواتل(13).

تأثيرات الزراعة في الحياة الاجتماعية و الاقتصادية

لقد قويت الروابط الاجتماعية بين مختلف الجماعات البشرية في مكسيك ما قبل كولومبس، و أصبحت تتعاون من أجل فلاحه الأرض و محاولة إنبات محاصيل ذات جودة راقية. و قد شهدت العصور اللاحقة على ما يبدو زراعة مساحات من الأرض بالذرة على جانبي الطرق الرئيسية في المدن الكبرى ليققات منها الفقراء. و لأنه لم يكن عند شعب الآزتك من يسرق بدافع الجوع، فإن العقوبة الحتمية لجريمة السرقة هي الإعدام (14).

و تعتبر الذرة الصفراء من النباتات المقدسة في مكسيك ما قبل كولومبس إذ أصبحت الركيزة التي بني عليها اقتصاد المكسيك القديم. وقد فرضت الضريبة العينية من هذا الإنتاج الزراعي، فكانت المدن المهزومة في حروبها مع شعب الآزتك تدفع في مطلع القرن السادس عشر نحو 7000 طن من الذرة و حوالي 5000 طن من الفاصولياء(15). و ما من شك في كون اعتبار الزراعة قد لعبت دورا محوريا في اقتصاد مكسيك ما قبل كولومبس بدليل رفض قتال الآزتك للأسبان عند تقدّم هؤلاء الأخيرين من عاصمة دولتهم المعروفة باسم تنوشتلن، و ذلك لكون فترة الحرب واکبت موسم الحصاد، إذ كانت مصيبة فقدان المحاصيل في رأي هذا الشعب أكبر من سقوط دولتهم(16).

و يبدو أن الفن في المكسيك القديم قد تأثر بممارسة الزراعة، و ظهر ذلك من خلال خدمة الفن للعقيدة. و قد أضحي النحاتون ينجزون أعمالا فنية تتمثل في تشخيص آلهة الزراعة و الخصب، كما زينت واجهات الأواني الفخارية بأشكال هندسية

¹³ - ANAWALT(P-R)«Les sacrifices humaine chez les Aztèques »
LA RECHERCHE, 175, Mars 1986,p327.

¹⁴ - لتون رالف ،شجرة الحضارة ، ترجمة محمد السويدي، الجزائر : المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية،

1990، ج.3، ص 528

¹⁵ - PETERSON (F.-A.),), Op .cit, p 205

¹⁶ - لتون رالف ،المكان السابق

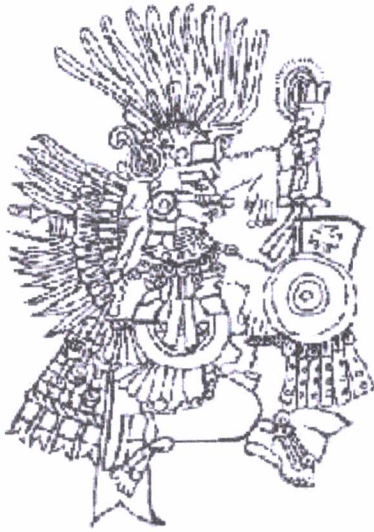
لها علاقة وطيدة بالحياة الزراعية. و قد تعدت صناعة الفخار مرحلة النفعي المحض المتمثل في صناعة أواني الاستعمال اليومي من أقداح و صحن و جرار كبيرة موجهة لحفظ الحبوب، بعضها دائري و البعض الآخر ذو عنق، طغى عليها اللون الأبيض أو مزيج من اللونين الأبيض و الأحمر، و هي ذوات أشكال بسيطة. كما صنع حرفيو الفخار تماثيل من الطين بأحجام مختلفة رافقت الأثاث الجنائزي، هي تمثل في أغلبها فتيات بسترات من الأعشاب ملونة ببعض الأصباغ. و قد عثر علماء الآثار على نماذج من تماثيل مصنوعة من حجر اليشب في شبه جزيرة يوكاتان نحتها فنانون من المايا، تعود إلى الفترة الممتدة ما بين 100 ق.م-100م تمثل آلهة الشمس و آلهة الذرة⁽¹⁷⁾.

أما فنانون الآزتكت فقد قاموا بنحت صور بعض المنتجات الزراعية في الصخر الصلب من ضمنها المطرة أو الكالباص، في حين نحت آخرون آلهة الزراعة و الأرض المعروفة باسم كواتليكو (Coatlucue) (الشكل 6)

خاتمة

لقد استقر الإنسان في ما بين الأمريكيتين في الفترة الممتدة ما بين سنة 6500 ق.م و سنة 1500 ق.م، فمارس الزراعة واستقر في قرى تنتشر غير بعيد عن أودية المكسيك الحالي و أمريكا الوسطى، و ارتبط وجود ذات الإنسان في مكسيك ما قبل كولومبس بممارسته للنشاط الزراعي. و يبدو أن النمط المعيشي لإنسان أمريكا الوسطى قد ارتبط ارتباطا وثيقا بممارسته للزراعة، بل أن هذا النشاط قد انعكس على الحياة الحضارية للنطاق الحضاري المعروف باسم ميزو-أمريكا. وكذا إيجاد نظام سياسي متكامل حكم المنطقة و مهد لميلاد أنظمة سياسية و حضارية بالمنطقة، حيث حاول إخراجها من النظام القبلي البدائي إلى نظام سياسي متطور، فانعكس ذلك على مختلف جوانب حياة سكان المنطقة.

¹⁷- HAMMOND (N), «Le développement de la civilisation maya », POUR LA SCIENCE , 108, Octobre 1986, p 19



شكل 1

إله تجديد الغطاء النباتي و إله صانعي
الذهب شيبى توتك
(Xipe totec)



شكل 2

إله الحياة و الخصب و خالق الزراعة
كنزال كواتل
(Quetzalcoatl)



شكل 3

تلالوك (Tlaloc) ، إله المطر
و الرعد عند الآزتك

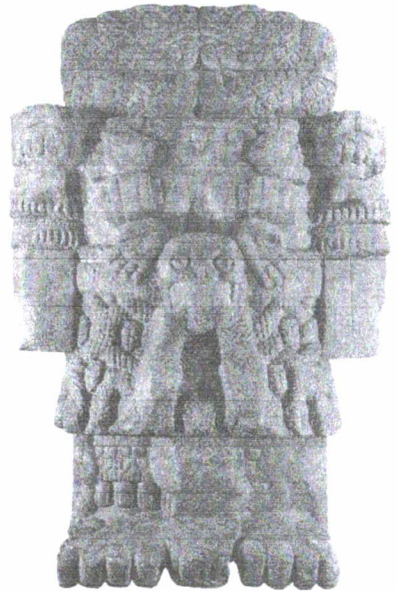


شكل 4

تشكومكواتل (Chicomecoatl)
إلهة الغطاء النباتي و الذرة الناضجة



كل 5 هوتسلوبشتلي)
(Huitzilopochtli
إله الشمس عند الآزتك



شكل 6
إلهة الأرض كواتليكو (Coatlicue)



خريطة 1

شعوب المكسيك ما قبل كولومبس